الفصل الثامن

بهاء طاهر

في قصة «المظاهرة»، التي كُتبت ونُشرت في عام 1966، وتظهر في مجموعة «الخطوبة»، 1972، يقدم بهاء طاهر شهادة ناضجة عميقة، على الصعيدين الفكري والفني، عن الموقع الذي تحتله كرة القدم في الحياة المصرية خلال المرحلة التاريخية، منتصف الستينيات. اللعبة، كما تكشف القصة، ليست رياضة شعبية تحظى بالاهتمام الجماهيري العريض فحسب، لكنها أيضًا بمثابة الأداة الأهم لملء الفراغ السياسي وتحقيق التوازن النفسي، ذلك أنها سلاح فعال يتزود به الكثيرون لإضفاء المعنى والجدوى على حيواتهم الفارغة، ومعانقة الشعور الكاذب بالتحقق والانتماء.

الراوي موظف شاب أعزب يقيم مع أمه، والعلاقة التي تجمعهما قوامها التوتر وغياب الانسجام، وكذلك الأمر في علاقته مع أخيه الأكبر، جراء اختلافهما المزمن حول بيت الأب الراحل، حيث إصرار الراوي على بيع نصيبه، والاعتراض الحاسم العنيد الذي يتمسك به الأخ الأكبر.

الحياة في جملتها ليست ممتعة مشبعة مقنعة، والدورة الماسخة الراكدة المكررة تحيلها إلى جحيم لا يمكن احتماله والتعايش معه والرضا به: «ما معنى ذلك؟ ما معنى أي شيء؟ لقد مات أبي فما معنى حياته؟ ما معنى حياتي؟ في كل صباح أذهب إلى عملي في الشركة فأعمل الشيء نفسه. أدفن أوراقًا في ملفات وأبوّب الملفات ولا أحد يسأل يومًا عن هذه الملفات.. في العمل في البيت، مع أصدقائي يحدث نفس..».

في مسيرة التخبط والاضطراب، يلتقي الراوي مع امرأة مأزومة مثله في السينما، وسرعان ما يفر منها إلى اللاشيء واللامكان، وعندئذ يجد نفسه متورطًا في متابعة مظاهرة كروية احتفالية صاخبة، ويتخذ النصف الثاني من القصة مسارًا مختلفًا عن نصفها الأول. إنه ليس من المهتمين بكرة القدم المتابعين لأخبارها، بل إنه لم يشاهد مباراة واحدة في حياته. التحولات الجذرية العاصفة المترتبة على التورط في المظاهرة، فرجة ومشاركة، تبدو في ظاهرها مغايرة لما قبلها من الأحداث، لكن الأمر في جوهره أقرب إلى الامتداد المنطقي. ينتقل من إيقاع راكد مملٍ مفرداته العبث والخواء والفراغ، مندمجًا بلا إرادة في مظاهرة تعلي بدورها من شأن العبث والخواء والفراغ. الظاهرة إذن لا تقتصر على فرد بعينه أو مجموعة محدودة محددة من الأفراد، والأزمة العامة تقود إلى التعلق باهتمامات هشة بحثًا عن وهم المعنى.

في الشارع الذي يسير فيه متخبطًا يصطدم بالناس، ينتبه الراوي إلى الزحام والضجة والموسيقى في نهاية الطريق: «وأناس يحملون نعشًا غريبًا، وكان الواقفون على الرصيف يبتسمون في سعادة، وهم ينظرون نحو الزحام وبعضهم يعدو ليلحق به. استوقفت واحدًا وسألته:

- ما الخبر؟

فقال متهلل الوجه:

- أخذنا الكأس، خمسة أهداف لواحد. تصور خمسة لواحد!.

قال ذلك ثم تركني وجرى فعدوت لألحق به وأتفرج».

"الفرجة» هدفه الأساس من العدو واللحاق بالكتلة المجهولة التي تحتفل بالانتصار والحصول على الكأس، وبعيني الغريب الوافد على عالم الكرة، الجاهل بتفاصيل ودلالات ومصطلحاتها، يرصد المظاهرة الصاخبة الأقرب إلى عرض مسرحي شعبي عفوي، ينفّس المشاركون فيه عن مشاعر كامنة لا تُتاح لهم فرصة التعبير عنها عبر قنوات أخرى: « كانت مظاهرة غريبة.. في مقدمتها كانوا يحملون نعشًا أجلسوا فيه دمية خشبية تلبس (فانلة) بلون

فانلـة الفريـق المهزوم، وأخذ البعض حول النعش يقلدون صراخ النسـوة ويتلوون بحركات مبالغ فيها وهم يلوحون بالمناديل، ومن خلفهم كانت جماعة أخرى تحمل رجلًا ممزق القميص أخـذ يلوّح بيده متشـنجًا ويقول «خمسـة» فيردّون عليه معًـا «لواحد» ثم يقـول و«الخيبة» فـيردّون «بالويبة». كانـوا منفعلين جدًّا ووجوههـم حمراء متقلصة يغطيهـا العرق والتراب. ومن خلف هؤلاء كان رجل يمسـك عصا ويرقص على أنغام المزمار البلدي والرق.. كان وجهه محتقنًا وهو يزم شفتيه ويقطب جبينه ويمسك بالعصا ساكنًا متصلبًا ثم يهز جذعه هزة مفاجئة ولكنهـا طفيفة ويظل سـاكنًا حوالي دقيقة وعازف المزمار يعزف لحنًـا خافتًا مرتبكًا حتى يهز جذعـه وعصاه مرة أخرى ثم يعود للتقطيب، وشـاع الملل والفتور مـن حوله وانصرف الناس للرجـل الـذي يهتف حتى لم يبق غير العازفين وعدد قليل، ولكنه لم يبال: كان يهز جذعه كل دقيقة مرة. أما الأطفال الصغار والصبية فكانوا يجرون حول المظاهرة ويهللون وهم يلبسـون جلاليـب وبنطلونـات قصيرة عفرها التراب، بينما أمسـك بعضهم بقطع من الطباشـير وحملوا طـلاء وراحوا يكتبـون على الأرض، ويندفعون نحو كل حائط يرونـه ليكتبوا بخط متعرج (خمسة لواحد) «5 - 1».. «5 - 1»..».

حالة هسـتيرية ذات طقوس غرائبية متشـنجة يبدو واضحًا أنهـا مكررة مألوفة، تمثل علامة راسـخة للاحتفال الذي يحمل سـمات ومقومات الكوميديا السوداء. «زار» عصري غير تقليدي، يندمج فيه حشد مسكون بالهوس المتطرف الذي يليق بمرضى الفراغ الباحثين عن شيء ينشغلون به. عن أي شيء ينفّس هؤلاء، «المهاويس» غير الأسوياء؟، وهل يجدون في الانتصار الكروي تعويضًا عن هزائم شتى تمتلئ بها حيواتهم المكتظة بالإحباط واليأس والتعاسـة؟. لا يمكن القول إنهم سـعداء فرحون، والشـماتة تعانق البذاءة في سلوكهم، أما الانفعـالات المتطرفة فتنم عن مرض أصيل يصيب الروح ويسـلب الحـد الأدنى من العقل والاعتدال. في اندفاعهم المتعصب غير المحسـوب، لا يسـمح هؤلاء بوجـود من يقل عنهم حماسـة واندفاعًا وبـذاءة، كأنهم يعيدون إنتاج النظام السـياسي والاجتماعي القائم، الذي يرفض مبدأ الاسـتقلالية والتغريد خارج السرب: «وبينما كنت أتابع المظاهرة وأنا أسـير عـلى الرصيف هجـم عليّ رجل قصير يرتدي قميصًا أزرق وأمسـكني من ذراعي وهو يقول متنمرًا:

- ألست معنا؟

- بالطبع أنا معكم. (ولم أكن في حياتي قد شاهدت مباراة)

قال في شك:

- لا يبدو عليك الحماس.

- بل أنا متحمس.. خمسة لواحد؛ تصور.

بدأ الحماس يجرفني بالفعل فجذبته من يده واندسست وسط المظاهرة. صرت أصفق للرجل الذي يهتف وأحمل النعش وأنا مسرور أضرب الناس على ظهورهم ويضربونني على ظهري وأترك نفسي في الزحام يدفعونني حيث شاءوا. ووجدت نفسي مرة أخرى إلى جوار الرجل القصير الذي قال لي وهو يرفع يده على كتفي ويلوح بالأخرى في سعادة:

- لقد قتلناهم، لقد.. (قال إننا فعلنا بهم شيئًا بذيئًا جدًّا).

فقلت له بحماس:

- نعم، لقد..

قال:

- لن يلعبوها بعد اليوم.

فقلت:

- كيف يجدون الشجاعة؟ لقد انتهوا تمامًا.

- أولاد ال.. كانوا يحلمون بالكأس».

السلوك العدواني غالب مهيمن لا يمكن تفسيره وفق مفاهيم الرياضة، والاندماج غير المشروط في القطيع مطلب لا تسامح فيه ولا تنازل عنه. الاعتدال ليس مطروحًا أو مقبولا، والتشنج هو السمة الأبرز عند المشاركين في المظاهرة الاحتفالية المتشنجة. ليس مستغربًا أن يدافع الراوي عن نفسه كأنه متهم، ويجاري المشجع القصير المتطرف

في البذاءة وترديد السباب المشين الموجه للفريق المهزوم، لاعبين ومشجعين على حد سواء.

لا يكتمل احتفال النصر بمعزل عن خوض صراع مباشر ضد أنصار الفريق الآخر، الحزانى المقهورين الملتحفين بالصمت والخذلان والمرارة في القهوة التي يتجمعون فيها كأنها المقر الحزبي. إلى عقر دارهم، في مسيرة تشبه الغزو، تتجه مظاهرة أنصار الفريق المنتصر، وسرعان ما يبدأ العراك وتشتعل الاشتباكات الدامية المروعة التي تبرهن حدتها على مرارات كامنة في أعماق المنتمين إلى الطرفين المتصارعين، ولاشك أن هذه المرارات لا يمكن أن تكون وليدة أسباب تقترن بكرة القدم وانتصاراتها وهزائمها: «تحطم زجاج ورُفعت مقاعد في الهواء، وظهرت عصى غليظة وعلت صرخات. وكان رجل مجروح في جبهته يمسك برقبتي وأنا أضربه في بطنه ضربات سريعة متتالية وهو ينظر لي في كراهية وأنا أريد أن أشتم ولكن صوتي لا يخرج وتشتد قبضته على رقبتي فأثني ساقي وأضربه بركبتي ضربة عنيفة بين فخذيه فيصرخ ويتركني وهو يترنح وقد أحنى ظهره وأخذ يتأوه في ألم وأنا ألاحقه وأضربه بقبضتي معًا في ظهره بكل قوتي بينما يسقط شيء ثقيل على رأسي ولا أعود أرى شيئًا».

بالنظر إلى حياة الراوي المأزوم المحبط، المحاصر بسلسلة طويلة من الانكسارات والهزائم، يمكن تفسير اندماجه المفاجئ على ضوء أوجاع لا شأن لها بكرة القدم التي لا يعرف عنها شيئًا. يوجه سيلاً من الضربات العنيفة القاسية ويتلقى مثلها، وكراهية الآخر المجهول تستدعي الاهتمام والتأمل، فهو لا يضرب عدوًا يعرفه من قبل، لكنه يصارع رمزًا يكثف ويلخص كل ما يعانيه من ضيق وكبت وهوان وتعاسة، مع أمه وأخيه والعمل الروتيني السخيف.

ينتهي المطاف بالراوي، الذي لا تجمعه صلة بالكرة وفرقها ومنافساتها، في سيارة الشرطة، معتقلاً بصحبة عتاة مدمني التشجيع الهستيري، أولئك الذين يخوضون تجربة التظاهر والاعتقال مرارًا وتكرارًا، فلا جديد يثير الدهشة: «وعندما جلستُ متعبًا وضع واحد يده على كتفي وقال:

- ولا يهمك؛ غرامة بسيطة ثم تخرج من الحجز.

ضحك البعض وهم يتظاهرون بالشجاعة بينما ظل معظم مَن في العربة صامتين. وهمس الجالس بجواري في أذني:

- هل نبيت الليلة في الحجز؟

نظرت نحوه مجهدًا، كان الرجل القصير وقد تلوث قميصه الأزرق بالدم فقلت له بصوت خافت:

- ربما.

قال وهو يقرض أظافره:

- ولكن ماذا يحدث لو بتنا الليل في الحجز؟.. عندي عمل في المطبعة بالليل، ماذا يحدث؟».

معركة حافلة بالجرحى، وسيارة الشرطة تمتلئ برجال تنزف دماؤهم ويغمرهم التعب والإرهاق. لا شيء يميز النهاية إلا الشعور الطاغي بالبواخ والنفور، وتهيمن سحائب العبث الذي لا يقبل تفسيرًا أو تبريرًا. المشجع القصير، المسرف في التطرف والعدوانية والبذاءة، ليس إلا عاملاً بسيطًا في مطبعة، والتنفيس عن أزماته المزمنة يقوده إلى أزمة جديدة تهدد عمله ورزقه ومستقبله. توتره لا يخفى، ومخاوفه تتجسد في قرض الأظافر وطرح أسئلة لا تنتظر إجابات يقينية حاسمة. يهمس للراوي في اكتئاب:

«- لا أدري لم أحب الكرة، الله يلعنها. ماذا يحدث لو بتنا في الحجز؟

قلت له:

- لا تحزن، لا تهتم.

فقال:

- ولكن ماذا يحدث لو بتنا؟».

قـد يكـون صادقًا في تأكيده عـلى أنه لا يدري سـببًا يدفعه إلى حب كـرة القدم والتعلق بهـا، لكنـه يجد فيها بالضرورة، دون نظر إلى وعيه و إدراكه، متنفسًـا مشـبعًا يداوي به همومًا أخرى. يبحث فيها عن الانتماء المفقود، واللذة التي تمنح البهجة والشعور بالتحقق. ربما يطول الندم جراء ما يترتب على هوسه من تداعيات، لكنه بالضرورة لن يتوقف عن التشجيع الجنوني والبذاءة والمشـاركة في مظاهـرات تمنح وهم الانتصار في معارك لا يشـارك فيها إلا من خارج الخطوط.

❐❐❐

obeikandl.com